القفز فوق المستحيل

مفيد فوزى

ليس بالضرورة أن أكون فى وسامة آلــن ديلون حتى أجتــذب المرأة. وليــس بالضــرورة أن أملك جمال حنجرة شارل أزنافور ولا عضلات رشدى أباظة حتى اجتذب المرأة.. ولكن أن يكون لى قيمة أجذب بها المجتمع بأسره ومن بينه المرأة.

تبـدأ حكاية الطفل الصامـت دائمًا.. الانطوائـى انطوائية مفزعة.. المنعـزل عن أقرانه من أطفال الحى.. مفيد فوزى.. أصبح فيما بعد ملك الكلمة المرئية والمقروءة والمسموعة وصاروخ القذائف الموجهة نحو تحقيق الهدف.. هذا الطفل الصامت أصبح يتحدث إلى ملايين الناس والمحاور والمناور والراصد لكل هموم المواطن المصرى.

وكانت البداية.. بنى سـويف شـارع مقبل رقم ١١ من سن العاشرة عندما أسرع الطفل الصغير مفيد وراء الصبية الحلوة فايزة جارته..كانت دقـات قلبه الصغير تهفو إليها وتميل بشـدة نحوها. كانت دقات قلبه تسـبق خطواته تعلن قدومه وبابتسـامة واسـعة على شفتيه تحوى كل سعادة الدنيا وبتلقائية طفولية أقبل على الصبية.. مد يده نحو لعبتها.. تراجعـت الطفلة إلى الوراء.. نظرت إليه.. اسـتدارت للإسـراع بالفرار وعلى ملامحها ارتسـمت علامات دهشـة واسـتغراب. ولم يجد الطفل الصغير تفسـيراً لنظراتها ولم يع عقله ما ترمى إليه... أسرعت الصغيرة الخطى نحو باب منزلها.. أسـرع مفيـد وراءها يريد اللعب مع صديقته الجميلة بلعبتهـا.. مدت يديها الصغيرتين تدق بهما بعنف على الباب منزلها تسـتغيث بأهلها مـن خطر قادم.. فتح البـاب.. دلفت الصبية داخل دارها واختفت فى جوفه.. أغلقت الباب وراءها بشـدة فى ذات الوقت الذى امتدت فيه يدى الصبى إلى الطفلة محاولا الإمسـاك بها أو لمسـها.. وفى لمحة من الزمن أغلق باب منزلها على إحدى يديه فجرح إصبعه جرحاً كبيراً.. سـالت الدماء غزيرة تغطى ثوبه وتمحو معها أى أثر للسـعادة داخل نفسـه.. نسى الطفل آلامه الشـديدة.. والدماء التى

تغطى يديه وملابسه.. ولم ينس أبدًا حبيبته الصغيرة التى فزعت منه.. لم تجد طفلًا جميلًا وسيما.. ولم لا وقد أصر والده على أن يكون حليق الشعر «على الزيرو».. فقد كان الحليق دليل الرجولة والحزم والصلابة فى نظر والده.

لم يترك هذا الحادث جرحًا فقط فى أصبعه.. بل ترك جرحًا عميقًا لم يندمل داخل النفس انطوى بين طيات الذكريات الأليمة.. ازدادت انطوائية مفيد.. زادت مساحة التأمل بداخله. نظر إلى نفسه.. وقف أمامها.. قرر أن يكون كيانًا مميزًا مختلفًا عن بقية أقرانه.. لن يكون زيًا واحدًا ولونًا واحدًا مثل ثوب شقيقه.. لن يكون نسخة مشوهة من أحد.. ولم لا وداخل النفس الكثير والكثير..

اعتراضات.. ورفض.. تأملات.. كبر الصبى.. وانطلقت التأملات من داخل صدره إلى حيز أرحب تمت ترجمتها إلى حروف وكلمات وكانت مجلة «شمس الفكر» أول مجلة حائط له بمدرسته الثانوي ببلدته بنى سويف.. طرح فيها أفكاره ومعتقداته.. أصبحت الكلمة هى ملاذه للتعبير عن عذابات ومكنونات النفس والعقل والقلب.. لناصية الكلمة كان امتلاكه لناصتها دافعًا قويًا.. جعل صديق عمره يلجأ إليه يستعين به وللعجب فى خطابات غرامية إلى حبيبته فايزة سليم عندما يقع خطأ أو مشكلة تتطلب اعتذاره لها.

أوقعه قدره أن يكون رسول المحبة بين صديقه وبين الفتاة الوحيدة الذى ظل قلبه متعلق بها منذ الطفولة.. اختاره صديقه الذى أصبح بعد ذلك رئيسا للنيابة بالقاهرة أن يكتب لحبيبتهما المشتركة فايزة وهو لا

يعلم ما يتكبده المحب العاشق الولهان.. مفيد.. من جراء ذلك.. وإن كانت كتاباته لهذه الخطابات قد أزاحت بعض الهم عن كاهله المثقل بالصمت بأن يبوح ولو بشكل غير مباشر بما يطويه بين جنباته من حب مشتعل يملأ عليه دنياه المحدودة.

فى كل خطاب لحبيبته كان يختمه وينهيه باسم صديقه قائلا «فى حياتى حياتك.. وفى مماتى مماتك».

ومرت الأيام. وقرر أحمد سليم والد فايزة وهو أحد مشايخ بنى سويف الانتقال إلى مكان آخر..

وقف مفيد أمام القطار مذهولاً.. وهو يرى هذا الغول المخيف يخطف قطعة من نفسه وروحه وجسده.. إلى أين؟! لا يعلم.. ضاقت أنفاسه المتلاحقة عندما شاهد فايزة داخل مقصورة القطار.. لم يملك المحب شيئًا أمام عذابات الموقف سوى يديه يلوح بهم مودعًا إياها.. اصطدمت عينا مفيد بعينيها المتجمدتين الباردتين.. كانتا تحملان نظرة بلا معنى خالية من الإحساس بحجم الفراق المشتعل حول مفيد.. سقطت يد مفيد إلى جواره تحولت إلى قطعة من الثلج.. ماتت الحياة بها وتسللت من الجسد المتجمد كتمثال لم يجف بعد..

وظل حب فايزة قابعًا داخل القلب والعقل وتنطوى الأيام وتتوالى الخبرات فى حياة مفيد وتتراكم الأحداث ويظل ذلك الأمر سرًا من الأسرار محفور فى الذاكرة لا ينسى.

وتبدأ فى حياة مفيد صفحات جديدة يصاحبه فيها إحساس بالتوتر النبيل.. ذلك الشعور الذى يدفع المرء إلى الرغبة الحارقة فى التميز.. ولم

ينس مفيد أبدًا.. أنه الطفل الحليق ذو الوجه الخالى من الجمال الذى لم يجد طفلا يلعب معه فى طفولته.

ويحصل مفيد على الثانوية العامة ويلتحق بكلية الآداب قسم صحافة وقد لازمه شعور دائم بالدهشة أمام المرأة حتى بعد أن أصبحت زميلة له يراها ويتحدث إليها كل يوم.. ظل إحساسه بالدهشة يلازمه.. وهناك وسط جموع الطلاب والطالبات بداخل كلية الآداب فى صفوف متراصة جلست أمامه فتاة وقعت عيناه على شعرها الطويل الأشقر كشعر الخيل.

مد يده أمسك به يتحسسه.. يتلمسه.. نسى كل ما حوله.. الأستاذ والطلاب وإذا بزميله الذى يجلس بجواره «محيى حقى» يدفعه بكلتا يديه.. صائحا فيه كفى.. أتريد أن ترفض من الجامعة..ذلك الزميل الذى أصبح مستشار مصر الإعلامى فى أمريكا فى فترة من الفترات فيما بعد..

وترك مفيد شعر الفتاة وبداخله شعور بالتخلى عن المجد والقمة ويصبح مفيد بعد عدة سنوات محاضرًا.. يلقى على طلاب كلية الإعلام دروسًا فى الصحافة.. وفى إحدى هذه المحاضرات كانت المناقشة تدور حول كيفية صياغة الخبر وأنواع العناوين وكيف يتم وضعها.. أشار مفيد فوزى بإحدى يديه إلى طالبة تجلس فى ركن من أركان حجرة الدرس ويالللقدر كانت فايزة سليم.. حبه الأول وسر عذابه.. وهنا يضحك من أعماقه.. فهى مازالت تحمل نفس النظرة الباردة.. لكنها لم تعرفه..

ويتعلم الدرس.. ويقول مردداً لنفسه، ليس بالضرورة أن أكون فى وسامة آلن ديلون حتى أجتذب المرأة.. وليس بالضرورة أن أملك حنجرة

شـارل ازنافور حتى اجتذب المرأة.. وليـس بالضرورة أيضًا أن يكون لى عضلات رشـدى أباظة وشعر كمال الشـناوى.. ولكن أن يكون لى قيمة أجذب بها المجتمع بأسره ومن بينه المرأة..

ويقفـز مفيد فوق الأسـوار.. ويتخطى الصعاب وينتصـر فى معركة حياته على ذلك الصبى الأبكم.. الصامت دائمًا.

□□□